سنعطيه الكلمة مرة اخرى ، يقول :

« ان الاضافة التي يقدمها التاريخ العربي المعاصر لنظرية وممارسة الحضارات ، تتوقف على ما يكون لهذا التاريخ من عناصر مشتركة مع التواريخ الاخرى ، او اكثر من ذلك ، على ما له من عناصر مميزة » ٠

وهذا ، في رأينا بديل مغلوط اعتبارا الى ان الكينونة والهوية ٠ والتغاير تعبر عن « ما هو نفسه ( Le Même )وعن ظله » ٠ وما يفهم دائما ليس هو الهوية في حد ذاتها ولا المغايرة لذاتها ، بل العلاقة التي تقوم بينهما ٠ ان ما يميز ثقافة او تاريخا او كينونة هو بالضبط تباعد كبير يستلزم ، لكي يستمع اليه ، احترام ما ليس قابلا للاختزال ٠ وحسب هذا الاستلزام ، فان الاخر لا يمكن اختزاله او ارجاعه الى جوهر ، ولو كان جوهرا فردوسيا ، دافئا ومعطرا ٠ فالظل الذي يجعل من الذات ego اخر للاخر ، هو الخاصة المميزة للفكر وللفن ٠

وكل هذا الذي ذكرنا به في عجالة ، قد اصبح مبتذلا في الفلسفة الغربية المعاصرة ٠ اين يعيش ، اذن ، بيرك ؟ هل هو الاخر يسكن خارج لغته ؟ لكننا لا نتهيب كثيرا من منفاه داخل « كوليج دو فرانس » ، فنطرح نفس السؤال : لماذا العرب وليس اللاشيء ؟

ما فتيء بيرك منذ اصدر كتابه « العرب من الامس الى الغد » ( ١٩٦٠ ) يعيد تحديد العرب ، ولكنها تحديدات يوجهها وفاء «ميتافيزيقي» غريب ٠ واليكم اهم افكاره في هذه المسالة ٠

ان ما « يطبع » العرب ، هو أولا كلاسيكيتهم ثم استمرارية ممتازة للهوية ٠ انهم كلاسيكيون بالمعنى الذي يجعل النزعة الانسانية الشرقية تجد عندهم وفاء والتصاقا بماضيهم وانطلاقا نحو المنابع ٠ ويحاول بيرك ان يوضح هذه الانطلاقة وهذا الوفاء بوساطة مصطلحات متعددة تطفو فوقها كلمة اصالة ٠ ان الاصالة تدعو المنبع والاصل من خلال قياس موسيقى ونبض الـ « ما هو نفسه » ( وليس الهوية كما يكرر ذلك بيرك ) ، على اعتبار ان « الما هو نفسه » ، هو الذي يتحول بصفته تباعدا غير قابل للاختصار ، يربط المغايرة بالهوية في حد ذاتها ٠

لاجل ذلك فان بيرك لم يفهم فكرة المغايرة في عمقها وهو المستشرق المؤسسي الذي يدرس رسميا هوية العرب مطالبا بمنحهم « الحق في المغايرة » ٠ ان هذا الانتقال الفارغ ، يحطم مجموع محاولته ٠ ويسهل التأكد من ذلك من خلال المقولات التي يتلذذ بنكهتها :

هوية/مغايرة تعددي/ ، خصوصية ، اصالة ، جذور ، اسس ، اعادة التجذر ، اللاامتلاك ، استلاب ٠٠٠ مجموعة من المقولات المبعثرة هنا ، تحاول تثبيت قدميها فوق عرب مهتزين ٠٠ ذلك انه منذ فلاسفة ما قبل سقراط الذين يعلن بيرك انتماءه اليهم فسي لحظات ضياعه ، ومنذ القديم ، وفكر الوجود يعرف كيف يميز بين الماهو نفسه ، وبين المطابق ( L'identique ) منذ القديم عرف ذلك الفكر كيف يغني ويحتفل بالتباعد الخارق الذي يجعل بالامكان ان اكون اخر الاخر ، ومع ذلك اكون انا نفسي منذ فجر الشعر والاسطورة ، تغنى ذلك الفكر بنشوة المغايرة المتشبثة بموقفها ٠

وبقدر ما ، تظل الميتافيزيقا فكرا للوجود وللاوجود ، للواحد وللمتعدد ، فان الاستشراق يظل متوليا لتوضيح تقاليدها وللتحدث انطلاقا من مفاهيمها ٠ لكن يوم يخلف فكر المغايرة الميتافيزيقا ، فانه سيمكن للاستشراق ان يتحرر من نفسه ٠ الا اننا نستطيع ،